الباب الرابع

فلسفة جورج برنارد شو

كما يراها الفيلسوف المعاصر « جود »

عرضنا فى البابين السابقين نظرية برنارد شو الفلسفية ، وعلقنا عليها ، وقارناها بغيرها من النظريات المعاصرة لها . . واستكمالا للبحث ، رأينا أن ندرج رأى أحد الفلاسفة المعاصرين لهذه النظرية ، وسيعرضها لنا الفيلسوف الكبير « جود » أحسن عرض وتحليل . . .

« ١ »

طبيعة وأصل فلسفة برنارد شو

يقول جود :

لا يعرف الفيلسوف إلا عن طريقين هامين ، ينفرد بهما دون سواه من الناس :

الطريق الأول ، هو ما يكونه لنفسه من رأى خاص فى الوجود عامة ، وحال حياة البشر فيه ، وكيف على ضوئه يجب أن يعيش الفرد منهما مرغداً . . والطريق الثانى ما يعرف به نفس الرجل من كياسة وحكمة فى أقواله وأعماله ، وما يذيعه على الناس من هذه الحكم ، فى شتى الموضوعات التى تهم السواد الأعظم منهم ، كحديثه عن المال والله والحب والزواج والرغبة والموت والطموح أو الحكمة التى - فى حالة جورج برنارد شو - تصاغ فى قالب يثبت فى الذهن ويخلد فى الذاكرة . .

وبرنارد شو فيلسوف ، وله فلسفة تشتمل على ناحيتين هامتين : الناحية الأولى تتناول الحديث عن التطور الخالق . .

وبالرغم من أن هذه الفلسفة تتجلى بوضوح فى رواياته إلا أن عناصرها الأولية تتركز فى مكانين معينين : فى مقدمة كتابه « الإنسان والسوبرمان » ، وفى منظر الجحيم من الرواية ذاتها . وفى مقدمة روايته المشهورة - الرجوع إلى متوشالح - والأخيرة

وهي الأهم ، لا لكونها ظهرت فى عام ١٩٢١ ، إذا اعتبرنا أن عقل برنارد شو قد نضج وبلغ درجة بعيدة من الرشاد والكمال منذ كتابته « الإنسان والسبرمان » التى ظهرت عام ١٩٠٣ . ولكن لأنه كما يقول برنارد شو نفسه ، فى نهاية مقدمة الرجوع إلى متوشالح » . . . « وكما كنت وقتها فى أعلى ذروة ابتكارى وحبي للفكاهة ، فقد أخرجتها - أى الرواية - آية للعالمين ، وأحطتها بفكاهة فى فصل واحد . وكان هذا الفصل كاملا من الناحية الاستطرادية ، أى أن هذه الكوميديا يمكن نزعها وتمثيلها على حدة ، وكانت النتيجة دائرية ، حتى أن أحدا لم يلحظ الدين الجديد فى وسط الدوامة الفعلية التى ابتدعتها حينذاك . . »

« ٢ »

المادية

ولنبدأ الحديث عن الجهات الأصلية التى استمد منها برنارد شو فلسفته . . فأول ما يتبادر إلى أذهاننا نظرية التطور الخالق . ويستمد برنارد شو أفكاره مباشرة من صمويل بطلر إلى لامارك. وعلة ذكر صمويل بطلر ترجع أيضا إلى علاقته بدارون . وتأثير دارون كان فى الأصل إيحائيا ، ولكنه ما ليث أن كون جانبا هاما فى الفلسفة المادية للوجود التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر . وبهذه الفلسفة واجه الوجود مشكلة خطيرة : مشكلة أن الحياة نتيجة عملية لأوضاع القوانين الطبيعية والكيمائية تماما ، كما فى حالة « المادة غير الحية » . وتحت تأثير بعض الشروط الفيزيقية لم يحاول الماديون أن يثبتوا أو يقرروا ندرة المساحات الكونية التى تكونت فى رحابها المادة وأثبتت وجودها . .

ووجود المادة معناه وجود الحياة . واستطراد الحياة آت عن طريق الشروط نفسها التى توافرت لدى الحياة أيام ولادتها ، وقد يأتى يوم تختفى فيه هذه العوامل أو الشروط فتتوقف الحياة عن السير وتنمحى الأميبا من الوجود . .

وكان هذا هو الأساس الذى اكتشف به دارون « نظرية التطور » وقوانين « الانتخاب الطبيعى » التى بها دارت عجلة التطور ، فلعب دورا مكملا ، مكملا لأنه

فى حالة نزعها إلى ظواهر الحياة ، أدى ذلك إلى اعتقاد دارون بأنه ليست هناك قوة محركة فى الكون تحثه وترشده ، ولكن التطور كان فى جل سيره يعتمد على عمليات القوى المادية التى سيطرت على الكوكب الأرضى قبل ظهور الحياة فيه .

وأبعد من ذلك أثرا حدوث التباين فى النوع . وقد يكون هذا التباين قد وافق الوسط الذى ظهر فيه وقد لا يكون . فاذا لم يكن فقد استئصل ، وإذا كان فإن النباتيين يقولون بتنازع البقاء فى النسل أو الذرية ، كما أنه ميزة هامة فى تاريخ النوع . وكل هذا حسن ومقبول . ولكن لماذا حدث التباين فى النوع ؟

ولهذا السؤال خطورة وأهمية كبيرتان . فإذا لم يكن هناك « تباين » ولم يحدث تغيير فى النوع ، فمعنى هذا أن كل جيل يكون صورة طبق الأصل للجيل السابق له ، وتكون الاميبا وما عاصرها هى نفس العناصر المكونة للحياة على الكوكب الأرضى .

إذن فالتباين قد لعب دوراً أساسياً فى ميكانيكية التطور ، وكان من الضرورى أن يخلق النظرية ويظهرها للعالمين . .

ولكننا نعود إلى سؤالنا ونقول : لماذا حدث التباين ؟ . .

الرد على ذلك هى أبحاث لامارك التى سنعرضها فى هذا الفصل . . .

اللاماركية

التباين فى النوع كان منشؤه أثر البيئة . . فعند ما تغيرت البيئة وتبدلت كان لزاما على الكائنات الحية أن تتغير معها وتتبدل ، وأن تخضع للتغيير أو تختفى من الوجود .

وهؤلاء الذين خصصوا لعوامل التغيير لا شك أنهم بلغوا شأوا بعيدا فى الرقى وكذلك فعل تابعوهم . . فالتكيفات الجديدة هذه تخيلها « لامارك » ولخصها فى أنها لا تعدى نمو أعضاء جديدة وانقراض أخرى قديمة تدريجيا على مر السنين والاحقاب .

كما أن التغيير فى البيئة أدى إلى وجود حاجات جديدة ، حاجات جديدة لعادات جديدة . وعادات جديدة لأعضاء جديدة تكونت بحكم الحاجة والعادة وسلطانهما . والواقع أن الفرق بين فلسفة لامارك وفلسفة دارون لم تكن كبيرة .

ونشأ هذا السؤال الطريف . . لماذا ولدت الزرافة برقبة طويلة ؟ وطبقا لما

يعتقده تابعو دارون ، فإن الزرافة ولدت صدفة برقبة طويلة كما يولد الأطفال بالنمش صدفة . .

ولكن الحقيقة لا تتعدى هذا البحث الطريف ، وهو أن « الزرافة » فى الماضى كافحت مكافحة كبيرة لتحصل على القوت ، فمدت رقبتها لتقطف أوراق الشجر من الأغصان العالية ، وبهذا أصلح حالها تدريجياً ، وطالت رقبتها على تعاقب الأجيال ويقول لامارك فى هذا الصدد : إن الزراف وجد فى دور معين من التاريخ أن كل الأغصان الواطئة قد أكلت ، فوقع تحت لزوم أو حاجة إطالة الرقبة ليصل إلى الأغصان العليا أو يموت جوعا . . فالنوع الذى خضع لعامل الحاجة هنا ، وللشرط المتغير ، نمت رقابه ، فنقل هذا التغيير إلى نسله . ففى سبيل الكفاح للبقاء ، تغلب الأقوى وطالت رقبته وكمل . وهذا الغالب الذى ساد لم يأت محض صدفة ولكن بسبب استمراره وكفاحه فنجاحه . . . وكانت الطريقة فى نظر لامارك أقل تقريرا منها فى نظر دارون ، فالتغيير فى البيئة الخارجية كتغيير المناخ ، قد يجبر بعض الكائنات الحية على التغيير أيضاً ، فإذا لم تخضع أعضاؤها للتغيير ماتت واندثرت ولم يصبح لها أثر يذكر فى التاريخ . . .

آراء صمويل بطلر

ولكن لنفرض أن التغيير فى الأعضاء الحية بطريقة خضعت لها الأعضاء للتحويل فى البيئة كان تغييراً قصديا أو غائيا ، بمعنى أن أحداً أو شيئاً يعمل مستقلا فى تكييف هذه الأعضاء للكائنات الحية ، أو ربما يفقد الكمال عن طريقها أو فيها أو خلالها ، ولنفرض جدلا بأن التغيير فى الأشياء الحية لم يكن دائماً النتيجة المباشرة لتغيير سابق فى الأشياء الميتة ، ولنفرض أنه حدث مستقلا نتيجة حاجة الأشياء الحية إلى النشوء والارتقاء لتميزها عن غيرها من الأشياء الميتة ، أو أنها استخدمت الأشياء الميتة لمنفعتها الخاصة والذاتية ، فلو كان هذا صحيحاً فتكون « العلة » أو « السبب » تعمل أحيانا من الحى إلى الجماد أو من الحياة إلى الموت . . والضرورة القصوى فى حالة أن المادة الحية أضحت ميتة ، بدلا من أن تكون محصولا ثانويا للهيولى

أو للمادة، قد تكون فى حالة مستقلة عنها. ولما كانت مستقلة، فقد يكون فى استطاعتها أن تعمل عليها وتستعملها أو تتداخل فيها.

وهذا هو ما اعتقده صمويل بطلر، وعلى هديه تبعه برنارد شو، وتعمق فى دراسة التطور الابداعى الذى خطا خطوة كبيرة على يديه..

نظرية شو فى التطور الخالق

يفترض برنارد شو أن العالم يحتوى على عنصرين أساسيين هما: الحياة والمادة. وأحيانا يتحدث عن الحياة بأنها مادة مبدعة أو خالقة، فبرغبتنا فى استعمال أذرعنا مثلا بطريقة خاصة، فإننا نأتى إلى الوجود بمجموعة عضلات، ولكن الواقع أن المادة تكون كما كانت عليه من الابتداء.

إذن فالمادة يعبر عنها بأنها «عدو» الحياة... أو جدت الحياة فى دوامة القوة، وأجبرت عدوى «المادة» أن يطيع روحا حيا.. وهكذا تقول ليليب فى نهاية كتاب «الرجوع إلى متوشالح»..

فاعتبار أن المادة عدو، وأن الحياة تعمل جاهدة على أن تتحكم وتتغلب عليها. وتتدخل فيها تدخلا يكون من نتائجه أن ينتج هذا التغلب على المادة كائنا حيا. وهذا الكائن الحى يشتق صفاته، ويشهد على وجود العنصرين الأساسيين اللذين يتكون منهما العالم، وهما الحياة موضحة فى المادة.

وبرنارد شو يقترح أكثر مما يوضح «بأن الحياة لا يمكن أن تتقدم أو تتطور إلا إذا تدخلت فى المادة تدخلا كليا لخلق الكائنات.. لأنها العدة اللازمة التى تتقدم بها وتتحول من طور إلى طور...»

ولإيضاح ذلك بطريقة أسهل نقول: إن هذه القوة «قوة الحياة» تكشف عن نفسها بواسطة استخدامها المادة.. لاكتساب خبرة أوسع وأصلح ومعلومات أوفر، وذكاء خارق لتحصل على قوة وعى واسعة الأفق..

والكائنات الحية إذن، على هذا الضوء، هى العدد التى تخلقها الحياة لتسهل طرق تقدمها هى نفسها، والمادة - بالرغم من أنها عدو الحياة - هى أيضاً حجر المسن الذى تشحذ نفسها عليه لكى تخطو خطوة حاسمة فى التطور.. وهذه المادة

تؤدى مهمتها بواسطة القيود التى تفرضها على قوى الحيـــاة ، أى أنها تجبر الحياة على بذل أقصى جهدها لتتغلب على القيود حتى يتسنى لها أن تتقدم بنفسها لإحراز قوى جديدة ..

ولكن هدف الحياة أن تمر وراء المادة ، أعنى وراء الضرورة التى تجبرها على تجسد نفسها واتحادها مع المادة . فإذا بلغت هذا الهدف ـ التكميلى ـ تستمر المادة فى صد ودفع لتحدد من الحياة . .

والحياة أيضاً تعتمد على المادة . بمعنى أن كل تعبير مفرد للحياة ، باعتماده على الجسد الذى تجسده فى الحياة ليصبح كائناً حياً ، ينتهى وجوده الفردى بموت الجسد . ومن المظنون فيه أن هذه القوة ترتد أو تنعكس إلى المجرى الأصلى . وعند ما زادت حاجة التجسد فى المادة زيادة كبيرة ، فإن التعبيرات الفردية للحياة وقد أصبحت لا تعتمـد كثيراً على التجسد ، تصبح ، كما نظن ، تعبيرات فردية أساسية وتكون فى الحقيقة خالدة .

وهذه النتيجة أو النظرية هى موضوع نقاش طويل بين القدامى والمحدثين من الفلاسفة . كما يرويها لنـــا برنارد شو فى الجزء الأخير من روايته « الرجوع إلى متوشالح » الرجـل القديم ـ ما دمنا مرتبطين بهذا الجسد ، فنحن عرضة للموت ، ونصيبنا لم يكمل بعد . .

الرجل الحديث ـ وما هو نصيبك ؟

الرجل القديم ـ أن تكون خالداً . .

المرأة القديمة ـ سيأتى يوم لا يكون فيه بشر على الإطلاق ..

الرجل القديم ـ وهذا معناه أن الحياة سرمدية أبدية ..

وقد يكون هذا غامضاً ، ما دامت الحياة تتركنا ونحن غير متأكدين من أن الخلود سيكون خلوداً شخصياً بوحـدات فردية للحياة . أو سيكون خلود الحياة إجمالياً .. فلو كان المعنى الأخير هو الصائب ـ وهذا فيما أعتقد هو رأى برنارد شو الغالب ـ فإن الفردية ، فردية الكائن الحى ـ هى عمل المادة ووظيفتها الأساسية . .

منهاج التطور

ما هي طبيعة القوة أو النشاط الذى يتحدثون عنه أحياناً بأنه يسوق مقياس التطور إلى الأمام ؟

يمكننا أن نفسر هـــذه القوة فى حدود نشاطها . فهى كما يقول برنارد شو « الضرورة القصوى مع الاتجاه .. » تعبر عن نفسها فى الإرادة التى تخلق المادة أو تصهر المادة التي تجدها وإن كانت لم تخلقها ..

يقول برنارد شو : « الرغبة فى عمل شيء » هذه القوة تعمل فى درجة معينة تمليها عليها الضرورة للخلق والإبداع ، فاذا كان الرياضى مثلا ـ وهو يعرف أنه سينزل إلى مباراة ـ يمكنه أن يزيد من قوته « ويضيف عضلة إلى عضلاته » فمن المعقول جداً أن فيلسوفا مقتنعاً بأساليب هـذه القوة يمكنه أن يخلق « فكرة أو عقلا » ومن الجلى إذن أن الطريقين ضروريان لنهاية حتمية .. والتطور يرينا هذا الاتجاه الضرورى لعمل كل شيء . . »

إذن فهذه الحاجة القصوى هى التى تحمل القوة على تنظيم الدفع الضرورى لخلق أعضاء جـديدة فى النوع الموجود ، ثم لتنظيم الأنواع الجديدة للمخلوقات الحية . وهنا يأخذ برنارد شو من بطلر ولامارك وجهة نظرهما ، وهى أن حاجة الحياة إلى شيء ينقصها يجعلها تخلق هذا الشيء تدريجياً وتدأب عاملة فى الحصول عليه .

أذن فكيف حصلت الزرافة على عنقها الطويل ؟

يقول برنارد شو « لحاجتها القصوى للوصول إلى الأغصان العليا من الأشجار ومحاولتها المستمرة حتى نجحت فى الحصول على الطول المناسب للعنق الذى يعينها على سد حاجتها .. »

وهنا يلخص برنارد شو آراء لامارك الجوهرية فى صـــدد الموضوع ذاته . ويستمر عرضه للفكرة فيقول : « أنت فى حاجة إلى أعضاء جديدة أو إلى إضافات جديدة تستعملها أعضاؤك الموجودة ، وهذا معناه تكوين عادات جديدة ، وأنت تحصل على هذه الحاجات أو العادات لأنك تريدها ، وهـــذا يجبرك على المثابرة

فى المحاولة حتى تحصل عليها . ولا يعرف أحد كيف ، ولا يعرف أحد لماذا أنت فى حاجة اليها .. وكل ما نعرفه أن الشيء نفسه يأتى ، ونحن نفتكس ونرتد من محاولة إلى أخرى حتى يتحور العضو ، أو يتكون العضو الجديد ، وفجأة يكون المستحيل ممكناً وتتكون العادة ..

فالعادة الجديدة أو العضو الجديد يتكون على مرور الوقت ، لاننا كما أسلفنا القول ، فى حاجة اليه .

انظر إلى ما يقوله برنارد شو « لو لم يكن لك عينان ، وتريد أن ترى ، وتعمل جاهداً وتحاول ، ورغبتك أن تبصر الاشياء ، فمما لا شك فيـــه أنك سترى يوما وتحصل أخيراً على عينين . ! »

هذا هو إذن منهاج التطور . منهاج تطور البشرية ، فالرجل يشعر بحاجته إلى شيء ما ، وتتكون فيه الرغبة الجامحة ، ويستمر الوقت ، ثم يحصل على هذا الطلب بتعاقب الاجيال .

وقانون هـذا التحول أو التطور ، يشرحه لنا برنارد شو فى كتابه « الرجوع إلى متو شالح » بأنه حاجة أولية ثم أمل ثم عزيمة ثم خلق . وهذا ملخص من حوار حواء والحية فى بدء القصة .

الحية ـ الخيال أو الفكر هو بدء قصة الخلق . فأنت تتخيـل ما تريده . ثم تقرر ما تتخيله . وأخيراً تخلق ما تريده .

حواء ـ كيف أخلق شيئاً من لا شيء ؟!

الحية ـ كل شيء لا بد أنه خلق من لا شيء . انظرى إلى العضلة القوية على ذراعك ! لم تكن هـــذه هناك فى بادىء الأمر ، فقد كنت لا تقدرين على تسلق شجرة عند ما أبصرتك فى أول مرة . ولكنك رغبت وحاولت ، ورغبت وحاولت ، ورغبتك هذه خلقت من لا شيء هذه العضلة التى أراها على ذراعك حتى حصلت على رغبتك . وهكذا أصبحت تتسلقين هذه الشجرة بذراع واحد قوى ، وتجلسين على فرع فوق رأسك !

ويضرب برنارد شو مثلا آخر فيقول : « وليس المنوال على طريقة واحدة . فإنك تظل تتمرن على عمل الشيء أكثر من مرة حتى تجيده . فقد تتمرن على ركوب الدراجة مثلا لأول مرة ، وعند ما تبدأ الدرس الثانى لا يمكنك أن تبدأ من النقطة التى توقفت عندها بالأمس . فقد ترتد وتتعكس إلى الابتداء . وأخيراً تنجح فجأة ، ولا تتعكس ثانية .. وأبعد من ذلك مدى ، أنك تمرن القوة الجديدة لا شعورياً .. »

فطريقة تقدم الحياة ، كما وصفناها آنفاً ، تعبر عن نفسها تعبيرا أساسياً فى العادات التى تخلقها فى الفرد ، فخصوبة الذهن وبعد النظر والذكاء كلها مواهب اكتسابية لحاجة الفرد اليها ، ولأن الحياة تريد أن تنظمها فينا .. »

ويتضح مما تقدم أن تطور الحياة واندماجها فى المادة ظاهرة مؤقتة من مظاهر الحياة ، وهكذا ظن القدامى فى آخر فصل من رواية « الرجوع إلى متو شالح » أنه كان فى وسعهم أن يسيطروا على أجسادهم ويخلقوا أعضاء أخرى كالأذرع والأرجل عند الحاجة اليها . لأن فيهم قوى كامنة يمكنهم استخدامها . وإن كانوا فى الواقع لا يعلقون أهمية تذكر على فهم هذه القوى ذاتها وطرق تحايلها . وقد ضاقوا ذرعا بالمادة واحتيال المادة ، فاهتمامهم فى اتجاه آخر ، ورغبتهم مركزة فى شيء آخر . ففيم إذن ؟ .. وقبل أن أجيب على هذا السؤال ، هناك عاملان مهمان فى فكرة التطور يجب أن نقول عنهما شيئاً على كل حال ..

(١) تفنيد مسلك الحياة ..

نقول إن برنارد شو ، كما أسلفنا ، فيلسوف فى معنى الكلمة . وفى مقدرته كحكيم لأنه أبدى ملاحظات دقيقة فى الموضوعات التى تهم الإنسانية جمعاء . كالزواج والاعتدال والعظمة والخلود .. وكل هذا فى الجزء الأخير من روايته « الإنسان والسبرمان » وآراؤه فلسفية بمعنى الكلمة ، واستنتاجاته مرتبة .. وسأتناول هنا تفنيد آراء برنارد شو فى بحوث ثلاثة هامة هى : مسلك الحياة ، ثم المرأة والعبقرية ثم الفن والفنيين ..

إذا كنا عـدداً وآلات خلقتها الحياة لغرضها الفطرى ، وهو نشود الكمال ، فإدراك وجودنا سنجده فى تكميل مقاصـد الحياة بالنسبة الينا . وليس فى مطلب أغراضنا ذاتها ، واستمرار نشوء غرض الحياة سيكون فى حالة بذلها أقصى جهدها واستخدامها الفرد وطاقته للعمل فى الطريق الذى رسمته له ..

ومواهب برنارد شو وطاقته وجهده كرسها كلها فى نشر الاشتراكية وكتابة المسرحيات ، ومن الجلى أنه وزع هذا المجهود فى حرارة وحماسة ، وتجشم الصعاب فى سبيل نشر رسالته ، وصبره على المكاره ، وفى تفكيره الدائم بأن الفرد سيتقدم ويرتقى حتما حتى يصل آخر درجة فى سلم الكمال المنشود .

والحياة والحالة هذه تقفز من درجـة إلى درجة ، وتتخطى صعوبات كثيرة ذللناها لها ، وتتقدم فى جيل عنه فى جيل سابق ، وتستمر تفعل ذلك بمقياس أعلى مما فعلته قبـــلا ، وذلك لإخصاب الإحراز والسبق فى التحصيل والتكميل الذى هيأناه لها ، والمجهود والسعى إذن هما الطريقان المؤديان إلى حياة ناجحة وسعيدة .

ولذا يقول برنارد شو ويأمر الفرد : احصل على ما تريد وإلا فستضطر إلى أن تحب الشىء الذى اعتدت أن تحصل عليه عادة . .

ويقصد أنك إن اقتنعت بحالك سار منوالك على وتيره واحدة ، ولـكنك إذا كافحت وناضلت فستصل حتما إلى ما كنت تصبو اليه وتعمل جاهداً للوصول اليه .

(٢) تفنيد المرأة والعبقرية

لا أريد أن أضع فى أذهان الناس أن النساء عبقريات أو للنساء عبقريات ! . إنما القصد أن نعرض للعبقرية التى يفرضها شو ، بطريق التضمين ، والتى يقول عنها إنها موقوفة على الذكور دون الإناث ! .

وعلته فى ذلك ، أن التأنيث فى فلسفة التطور الخالق ، أكثر بدائية أو بمعنى أصح أكثر تأصيلا من التذكير . .

ويذهب برنارد شو بعيداً فيقول « إن نواة الحياة كانت أنثى . . »

وليلبث فى روايته « الرجوع إلى متوشالح » تظهر وكأنها قد أخرجت آدم من

داخلها . . فى البدء كانت ليليت ، التى جاءت قبل آدم وحواء . . وكانت وحيدة . . ولم يكن معها رجل ثم «شطرت نفسها شطرين . . » لتعطى ميلاداً جديداً لمخلوق جديد ، ثم تترك حتى نهاية الباب الخامس ، حائرة قلقة ، ولكنها تحاول أن تسود الجنس البشرى بإعطاء ميلاد آخر . . .

ولو عدنا إلى روايته الأخرى « لن يمكنك التكهن » وأنصتنا إلى الحوار الذى يجرى بين جلوريا وفالنتين لوجدناه لا يخرج عن كون « البذرة الأولى للحياة كانت مؤنثة ، وانقسمت إلى خليتين . . » وتتضح هذه الفكرة الجنونية فى منظر الجحيم من روايته الفلسفية الأخرى « الإنسان والسبرمان » وهنا يعتقد برنارد شو أن الحياة تعمل فى المرأة لتخلق الرجل الذى يتقدم بالحياة إلى معارج الكمال . . . فمن الناحية الجنسية تكون المرأة هى وسيلة الطبيعة التى بمقتضاها تخلد كمالها . كما أن الرجل جنسياً هو وسيلة المرأة الذى بموجبها يكمل مشيئة الطبيعة فى أدق طرقها الاقتصادية ، وتعرف هى بالغريزة أنه فى بدء التطور اخترعته وميزته ، بل خلقته خلقا ، لكى تنتج شيئاً أفضل مما تنتجه خلية جنسية واحدة . ولكن من سوء حظ المرأة أنها أعطت الرجل جزءاً صغيراً فى تدرج الإنتاج ، وتركت له طاقة جهد كبيرة ، لنيل أغراضه بالتحصيل والإحراز ، ليتقدم بنفسه ويتطور مع الحياة ، من غير بعد نظر منها ، أو سابق معرفة بما قد يحدث من ذلك المخلوق الذى أخرجته ولم تكن تدرى أنه سيصل إلى مرتبة عليا من النبوغ والعبقرية . ولنضرب لذلك مثلا فنقول إن تفكيرها كان قاصراً وضعيفا . .

ويعقب برنارد شو على ذلك بقوله : « إن المرأة فكرت أفكاراً لم تعمل لها أى حساب ، وصرفها الجمال والغرور عن تفهم ألوان الحياة . وكم كان مرعباً وخطراً أن تخلق أنساناً فرداً كانت وظيفته الأساسية تلقيحها ! فماذا حدث ؟ ضرب الرجل على يدها حتى كثر عدد الرجال ، وملأوا الأرض وأصبحوا فى مثل عددها ، وأضحت هى غير قادرة على أن توظف لأغراضها غير جزء يسير من القوى الكثيرة التى منحته إياها ؛ بأن وفرت له قوة التلقيح ، فتسربت القوى الزائدة إلى مخه وعضلاته فأكسبتهما مناعة وحصانة . فأصبح قوياً جثمانياً ، وتفوق عنها فى الحيلة والذكاء ،

أخلاق الحضارة القائمة ، بدون أن يرجع اليها ، وأخذ منها هذه القوى كقواعد للخلق والإبداع والاختراع . . .

ويقول أيضاً « واخترع الرجل الأحلام والمهازل والبطولة . . .

ويضيف جود إلى هذا قوله « وخلق الأسباب والعقائد التى تسعى إلى التقدم به وبذا يتخلص بطاقته من الغرض البيولوجى الذى خلقته له المرأة . . . ولكن ما دامت المرأة هى العربة الوراثيـــة للحياة ، وما دامت هى الأولى من الناحية البيولوجية ، والرجل الثانى فى الترتيب . فإن المرأة تنجح فى تسعة وتسعين حالة من مائة ، بأن تجعله يخر تحت أقدامها ، وترجعه إلى حالته البيولوجية الصرفة ، أى بمعنى أنها تحوله من بطل مغامر إلى رجل وهمى خيالى . أولا بعبادته لها ، وذلك عن طريق الحب والغرام . وثانيا بكثرة الإنتاج وخلفة العيال ، فتتحطم ظهره . وتكسر شوكته بمستوجبات رعاية الأبناء والبيت . ويعود الفيلسوف جود فيقول : إذا أنت حصلت على عمل ، فمعنى ذلك أنك تعمل ما يقدمه لك العالم ، ويدفع لك ثمنا عنه ؟ بدلا من العمل الذى تود أنت أن تعمله بحكم استعدادك وفطرتك . فهدوء الفنان والفيلسوف والثورى والعالم يحدث نزاعاً بين الإبداع وسلطان الجمال ، أو بين حب الاستطلاع ووفرة المعلومات ، وربما توهم الله فى حالة ، وقوة المرأة ، ورمزية السلام والتحفظ وضرورة حفظ بقاء العائلة على قدر الحياة المثلى فى حالة أخرى .

فيوافق برنارد شو زميله جود ، ويفسر رأيه خير تفسير فيقول : الزواج للرجل سلسلة ضخمة تثبت فيه . أما المرأة فتولد والسلسلة معها ، والزواج إذن هو الطريق المفتوح أمامها لتثبت طرف السلسلة الآخر فى الرجل ! ! »

فيسرع جود ويقول : « وفى تسع وتسعين حالة من مائة تنجح المرأة . ذلك لأنها مدفوعة بقوة الحياة الى المقدرة على مشاركة الرجل شجاعته أو استجابة مثاليته واسترجاع افكاره ، ولكن هذا الحماس سرعان مايخبو ويذوب فى ضوء النهار إذا ما تزاوجت المرأة . فتندثر شجاعتها ، ويخبو حماسها ، ويبقى الرجل وحده يصلح من أمر المجتمع وقد بعدت عنه زوجه واهتمت بأمور بيتها وتركته وحيدا فى ميدان الجهاد . . وهكذا فى تسع وتسعين حالة من مائة تطبق هذه الحالة . ولكن الحالة المائة هى حالة العبقرية ! ! والعبقرية مستودع لطاقة خاصة بالحياة ، خلقت

الغرض الأوحد ، وهو رفع الحياة إلى مستوى أعلى وأرفع مما هي عليه الآن . وذلك بمنح الرجل نظرة أدق من نظرة المرأة ، وعمقا وصبرا على تجشم الصعاب ، وخوض غمار المسائل السياسة والعقلية ، ومنحه إحساساً دقيقا بالجمال ! . . »

ويضيف برنارد شو إلى قول زميله جود هذا الرأى :

« العبقرية رجل اختارته الطبيعة ليقوم ببناء صرح الوعى والإدراك اللذين هما غرضان فطريان من أغراض الحياة . . »

فهو بذلك العجلة المباشرة للوراثة من الحياة كالمرأة تماما . ولكنه سيضحى بالمرأة للوصول إلى اهدافه وأغراضه تماما ، كما تضحى المرأة بالرجل العادى لاستكمال أغراضها باستمالته إليها بأدق طرقها المعروفة فى الغواية والدلال . .

وبما أن العبقرية تعبير قوى لا يطلق إلا على من خرقت آراؤه العـــادة ، ونضجت واكتملت ، وشقت طريقها بنجاح ملموس فى سلم الادراك ، فقد يدعى البعض أن هذا الرجل لم يصل إلى العبقرية إلا عن طريق امرأه . وهذا قول خاطيء من أساسه . بل هو قول لا يستند الى حقيقة صريحة ، وأعده قولا فاتراً ضعيفا .

وكثيراً مايقولون : إن المرأة لعبتها الرجل !

فإذا كان الرجل ألعوبة فى يد المرأة . . فهل هو شوبير أو سيزان أو بليك أو تولستوى أو سويدنبرج أو بنيان أو برنارد شو ؟ !

ماذا عن هؤلاء ؟ ! إنهم جميعاً خرقوا العادة ، وسخروا بالمرأة ، وأثبتوا انهم عباقرة افذاذ ! !

ولنفرض عبثا أن ذلك الرجل أصبح زوجاً ، ولسر ما فشل فى حياته ، فاضطر والحالة هذه أن يضع زوجه لتعمل له ، وتحصل على المال اللازم لتعيش ويعيش أولادها ، ويقصد جود هنا أن يضع المرأة مكان الرجل فى المجتمع ، فإن الرجل والحالة هذه أول مايعمد اليه أن يضيع حياته كلها يدرس فى قاعته المنعزلة ، يذوى شبابه ويحرق أعصابه فى سبيل بحث يواصله ويعمل جاهدا على تحقيقه

وكشف معمياته . ولنفرض أن هذا البحث هو دراسة المرأة التى يعيش على مالها كما درس داروين مثلا علم الاحياء ، أو كما بحث اهرليش البكتيريا ، فهو والحالة هذه انما ينكر ذاته فى سبيل غيره ، أو انه انانى جشع فى احتقاره الآخرين . .

فهل تعتقد أن المرأة تنجح فى عملها نجاح الرجل فيه ؟

سرعان ما تلتقى المرأة مع غرض « مبهم » وتصطدم به اصطداما يحدث معظم الاحوال مآس وفواجع ! !

هذا الغرض « المبهم » هو من غير شك العبقرية ! العبقرية التى تصطدم بأحجارها ولكنها لا تصل إليها ! !

وبما أن التعارض بين المرأة والعبقرية ينتج من توجيه الوراثة التى ورثها الانثيان — الرجل والمرأة — من الحياة ، أو بتعبير أدق من قوة الجهد التى أعلنت عنها الحياة فيهما ، فغرض الحياة فى حالة العبقرية أن تتقدم بنفسها تجاه ذرا الكمال التى لم تصل اليه على يد المرأة ، وتصون أو تحافظ على المقياس الذى سبق أن أحرزته عن طريق المرأة نفسها . . .

(٣) تفنيد الفن والفنانين

رأى برنارد شو فى الفن ملموس .

والفن كما يفهمه ماهو إلا آلة تكمل بها الحياة غرضها بطريق رفع نفسها إلى مرتبة عليا ، والفنان العظيم هو الأداة التى تخلقها لتتميم هذا الغرض وتكميله .

وطريق تقدم الحياة يتشعب عادة إلى فرعين : الفرع الأول ، يشير إلى أن الفنان العظيم إنما يستقى وحى إلهامه من نبع جديد فى الحياة . .

فهو يجسم نظريته مثلا فى الرسم أو فى الصوت أو فى الصخر أو فى الكلمات . . وهذه النظرية فى الواقع لا تتعدى كونها نظرية أصلية متينة البنيان . .

فإن عمل الفنان الذى يتجسم فيها — النظرية الحقة — يتعدى قانون الإنشاء ، ويخرج على طرق الفن الموضوعة من حيث الهيئة والأسلوب والذوق ، وتتنصل من المعرف والتقاليد ، ولا تلتفت لأى شىء كان ، بل تسخر من المألوف ، ويضرب

لذلك برنارد شو مثلا فيقول : إن سيمفونة بيتهوفن الثالثة ، أو موسيقى واجنر ، أو رسومات الانطباعيين كلها أمثلة على مايدعيه .. فهى تنازل الأفكار المتسلطة على العقول ، المتفشية فى كل وسط ، وتحارب الآراء المبتسرة والمتحيزة ، ثم تقفز هنا وهناك فى وجوه الحكماء والفضلاء من بنى الانسان !!

لذلك فإن حياة العبقرى دائما لاتخلو من تعاسة وشقاء . تخيم عليها ظلال الوحدة وتغزوها حروب الوحشة والضلال . والعبقرى عادة هو اتعس خلق الله !!

فإذا خرجت فكرته إلى الحياة وتجسمت كظاهرة جديدة ، فإن الآخرين سيأتون حتما ليروا الاشياء فى لون المنظار الذى اخترعه هو لهم . وقد تقبل فكرته وقد لاتقبل . وقد تعد مقياسا صحيحا للذوق السليم وقد لا تعد إطلاقا .. وقد يقولون عن رأيه إنه مستقيم ، وقد يقولون إنه معوج لا خير فيه ..

هذه هى المرحلة الثانية ، المرحلة التى سيتحرك خلالها ضمير البشر العادى ويسمو ويرتفع أو يهبط لينخفض .. ليحكم على هذا العبقرى الذى ظهر بينهم .. إذن فالعبقرى هو « قابلة الجمال » ...!

إنه لا يخلق الجمال ، ولكنه يورث الصوت ، أو الرسم ، أو الصخر الجمال الذى هدف اليه أولا ، ولذا فإن الرجال العاديين بأذواقهم المختلفة المتباينة قد يتعشقون هذا الجمال الذى يجسمه لهم الفنان ، بل يوجده لهم ، ويضحى بنفسه فى سبيله ، وبكل مالديه للحصول عليه ، والاعراب عنه بشتى ما أودعته فيه الحياة من حساسية مرهفة وشعور دفاق بمواضع الجمال لابرازه وإخراجه حقيقة ملموسة .

وهذا إذن هو مبدأ برناردشو فى الفن .. إنه آلة . وآلة مهمة لتكرير وتوسيع دائرة الإحساس عند الرجال والنساء . ولرفع الحياة أيضا إلى مستوى رفيع من الإحساس والوعى والإدراك والشعور والوجدان ..

وهذا أيضا أساس نقد شو وهجومه وسخريته من الفن الرمانتيكى .. فالفن كما يراه شو هو ثمرة ومجهود فنان مطبوع . فنان ذكر ، وهو بديهى — الفن — الوسيلة التى تنشدها المرأة ليجدها به الفنان . وهذه وسيلة أخرى لاستخدامها قوة الفن لرفع مستوى الحياة . أى أنه يعود إلى نظريته فيقول : إن الحياة تتدرج على كتفى

الفنان لبلوغ مرماها وهدفها الأصلى . . كما أن الفن كان يجب أن يتخطى الجنس . ولا يمجد المرأة . وفى هذا المعنى يمكنه أن يقول « لا تفتش عن المرأة » وهذا المثل الجديد هو مفتاح دفع الفن الرفيع إلى الامام . ومادامت هناك محاولة أخرى لا تقل عن محاولة افلاطون فى تفسير هذا الرأى فقد رأينا أن نتحدث عنها ملياً .

برنارد شو وأفلاطون

لأفلاطون محاولتان مزدوجتان فى تفسيره للفن .

فهو يشتبه فيه لأنه يوقظ العواطف النائمة التى كان يجب أن تترك خاملة ، ولأنه يقوى ناحية الروح ، ويجسم صور الأشياء للعالم المعقول ، وبهذا يزيد من نشاط الروح ويكشف جاهداً عن ماهيتها . . . رغم أنه ندد فى أكثر من مقال دورى فكرته التى قبلت الفن كوسيط لإبراز هيئة الجمال وجعلها ـ الفكرة ـ كنافذة ترى منها روح الإنسان قبساً من الحقيقة التى طمستها الأجيال وغلق على أذهان الناس فهمها ؟ !

وعند ما يحاول أفلاطون أن ينتقل من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية ، فإن تطور نضج رأى برنارد شو أى فكرته يظهر كأنه عكسى أى أنه يتجه من الحالة الثانية إلى الحالة الأولى ، ففى روايته « الرجوع إلى متوشالح » نجد مكاناً لا بأس به خصص للفن يعالجه فيه ويفسره على ضوء قوى من الحقيقة . .

فالحب ومهرجان الفنانين كافى بدء الرواية لا يخلوان من تقريع الحاضر ، وسخرية لاذعة بالتقاليد والأوضاع المألوفة . فيقول مثلا « دعنا نترك تلك السفاسف . . الدمى والألعاب والحلوى ! ! »

ويظهر « الرجل القديم » يحقر ويصغر من شأن الفن تحقيرا تاما كما فعل أفلاطون عند ما أعلن نفى أو طرد الفنانين من المدينة الفاضلة ، أو كما يقول « عند ما تكبر وتتصور الأفكار وترسم الصور ، فتنسج القصص من الدمى وما أمامك من ألعاب خيالية ! ! »

ولكن من الذى يصنع التماثيل والدمى والصور إذا لم تحضره الفكرة أو الأساس ؟ !

ومن الذى يريد قصصاً إذا كان يعرف الحقيقة . إنه لن ينزع إلى خرافة ولن يميل إلى أسطورة ، بل سرعان ما ينبذ كل شيء لأنه يلمس الحقيقة عن وعى. ولكن هذا الرأي تتعهده « الإنسانة القديمة » بالرى والنماء ، فتقول إن الفن ، مرآة سحرية تخلقها أنت لتعكس عليها أحلامك غير المنظورة فى صور مرئية حقيقية . . إنك تستعمل مرآة لترى وجهك . وتستخدم أساليب الفن لترى روحك . . ولكن نحن الذين سبقناك فى المعرفة ونكبرك سنا لا نستعمل مرايا ولا نستخدم الفن ، بل لنا حاسة خاصة مستمدة من الحياة مباشرة نميز بها الحقائق ، ونصل اليها مباشرة ! !

وعند ما تحصل على هذه الحاسة أو تورثك الحياة هذه الحاسة ستلقى بمرآتك جانبا وكذلك ستفعل بتماثيلك وألعابك ودميك ! ! »

وبرنارد شو لا يفعل كما فعل أفلاطون أو يعتقد مثله بأن الفن ضرب من الخيال الكاذب ، يبعدك عن تفهم الحقيقة . وهو على الأقل فى نظره ، عوض عن الحقيقة . أو وسيلة للحياة تتطور على أكتافه لتتم غرضها الأسمى وهو الكمال المطلق المنشود . . .

وهذا الرأى معناه أن الفنان يمكن اعتباره كفرد رأى الروح وتشبع بالحقيقة ولكن لسبب ما لا يعرف كيف يفصح عنها أو يثبتها ـ الحقيقة ـ فى أذهان الناس وبذلك يترك وراءه أثراً خالداً كرسم أو تمثال هو فى الواقع تذكار للأصل أو للحقيقة التى رآها مرة ولكنه لا يمكنه أن يراها على الدوام ؟ وإذا كان هذا صحيحاً ، فإن عمل الفن يصبح تعبيراً ، ليس عن الإلهام ذاته الذى يمتاز به الفنان ، ولكن عن الإلهام الذى أتاه مرة وفشل لسبب ما فى المحافظة عليه وأخراجه للناس على الدوام.

وهذا شيء فوق طاقة الفنان . أى أنه لا سلطة له على ذلك الوحى أو الإلهام ! !

حقيقة إنه يجيئه من وقت لآخر ، وتكشف له أسرار الحياة فى لحظات ، ويرى بنفسه النور ، ويقسم على أنه توصل إلى معرفة الحقيقة ـ حقيقة الحياة . . حقيقة العالم والوجود . . ولكن سرعان ما يذهب الوحى ويغيب الإلهام ، وينسى الناس ما كان يرمى اليه الفنان برسمه أو تمثاله أو موسيقاه ! ! ولم أجد شاهداً على هذا الرأى فى شو ، رغم أنه نتيجة منطقية لرأيه فى الفن ! !

الفنان العظيم

عـــــــود على بدء

أهـــداف الحيـاة ...

إذن ما هي الحقيقة التي يعمل منها الفنان صوره ونماذجه ، تلك الصور والنماذج التي فطن اليها الأولون فلقبوا بالعارفين ؟!

يظهر أن برنارد شو لم يعمل رأيه ليحسم الموضوع ويريحنا من كثرة الحدس والتخمين . . !

وكل ما يمكننا قوله إن فلسفته تصور تطور الحياة بأنه تقدم ملموس لقوة شديدة خارقة للعلم وللدراية . وهذه الدراية يجب أن تباشر عملها على محور رئيسي . وهذا المحور هو شيء آخر خلافها .

وفكرة برنارد شو كما تظهر لي ، تتطلب تضمين أو إدخال عنصر متوازن ثابت غير متغير في العالم بمباشرة قوة الحياة المطردة له فينتج ما يسميه وعيا وإدراكا للكليات ، وهذا العنصر سبق ان افترضته فلسفات أخرى تشابه افتراض برنارد شو وبهذا فإن الفلاسفة الافلاطونيين وصلوا إلى التأثر النظري بالصيغة الأبدية ، فإن إرسطاطاليس مثلا كان يحل المشاكل الرياضية البحتة والكميات الحسابية وعلاقتها بعضها ببعض ، أي أنه كان يفكر في اتجاه معين بحثا عن غرض رئيسي أو هدف اسمى للحياة بطريقته الخاصة التي انفرد بها دون سواه من الفلاسفة الآخرين .

فالحياة تهدف الى غرض معين .

وبما أن عامل التغيير في العالم كان جوهريا - على ضوء نظريات شو وأمثاله من دعاة التطور ، فإن إدراك المفكر — الذي تعمل فيه قوة الحياة نفسها - كفيل بأن يصل إلى الوقوف على هذا الغرض بطريقته الخاصة التي انفرد بها دون سواه من الفلاسفة الآخرين ، مثله في ذلك مثل ارسطاطاليس .

ويكاد برنارد شو يقترب من الهدف الذي تعمل له الحياة .

ويكاد هذا التقريب أيضاً أن يجيب على سؤالنا المذكور أعلاه إذا رجعنا إلى أقوال برنارد شو ، ووقفنا على رأى « المرأة القديمة عندما تتحدث عن الحاسة المباشره وتفسيرها لهذه الحاسة هو تفسيرها للحياه ذاتها وليس للحقيقة نفسها . . ونقترح بأن قوة الحياة للدراية والمعرفة فى اسمى طرقها تدور حول نفسها أو حول محورها .

وحديث ليليت فى الرواية الذى يكشف عن رأى برنارد شو عبارة عن حديث شاذ غير إخبارى أو اعلامى .

ما الذى نريد أن نعرفه ؟ وما هو ذلك الشىء الذى توصل اليه الأقدمون بإدراكهم المتقدم ؟ وماذا كان يشغل أفكارهم ؟

وأخيراً ما هو غرض الحياة وهدفها الأسمى ؟

إن الرد على هذه الأسئلة موجود فى الملخص الآتى المأخوذ من رواية برنارد شو المشهورة « الرجوع إلى متو شالح » فى حديث ليليث .

« وبعد تخطية ملايين الأهداف ، فإنهم يضغطون على هدف واحد هو تخلص الإعصار من المادة إلى دوامة الذكاء الخالص الذى عند ما ابتدأ العالم ، كانت دوامته خالصة نقية !!

« ورغم أن كل مجهوداتهم تجلت بوضوح فى أول ساعة للخلق ، فإنى لن أتخطى هذه المجهودات حتى يجدوا خلاصاً لذلك الشىء الذى يرابط بين الجسم والروح ، ويعرقل حياتهما على الدوام !!

« لقد أتيت بالحياة إلى دوامة القوة . وأجبرت عدوى المادة لتطيع روحاً حياً . . وبإخضاعى عدو الحياة جعلته سيد الحياة ! ! لأن هـــذا هو نهاية حتمية للعبودية المرذولة . وسأرى أن العبد يعتق والعدو يتصالح ، وتصبح الدوامة كل الحياة وليست مادة !!

وهذه الأقوال الغامضة تنجسم فى التحليل الآتى :

(١) إن الحياة كانت فى الأصل دوامة فى قوة خالصة .

(٢) وأنها تدخلت فى المادة، وأجبرتها على إطاعتها.

(٣) وبفعلها هذا أصبحت عبداً للمادة..

(٤) وأن غرض الحياة يتركز فى وضع حد للعبودية بطريق كسب الحرية للمادة المغزوة. وليس واضحاً ما إذا كانت المادة ستظل كذلك تورط الحياة وتربكها، أو أن المادة تضمحل بواسطة الحياة، وفى هذه الحالة تتوقف لتصبح:

(٥) متحررة من العبودية وتضحى فكراً حراً صريحاً نقياً..

الفرق بين الفلسفتين:

الشفياتية والبطلرية..

قوة الخلق تعبر عن نفسها فى المادة، وتصورها فى قوالب متعددة..

هذا هو أسس فلسفة برنارد شو وزميله صمويل بطلر...

وكلا الاثنين يعبران عن مظهر خارجى للمادة، ولنضرب لذلك مثلا فنقول: كل مفكر حر هو مقياس للذكاء النادر، وكلاهما يمتدح الذوق السليم. وشو كبطلر يكره المحترفين وعلى الأخص الأطباء، ويحاول أن ينظر إلى الناس من الناحية البيولوجية الصرفة. وينظر إلى أعضاء الجسم نظرة خاصة، وبأن هذه الأعضاء هى أهم منتجات التطور. وزيادة على ذلك، فإن لبرنارد شو كما لبطلر نظرة خاصة فى فائدة الإيهام للإنسان..

وإلى الآن فإن نظرتى المفكرين: شو وبطلر متشابهتان تمام التشابه، هذا ما يظهر فى الغالب. ولكننا إذا دأبنا البحث وجدنا اختلافا جديداً. ذلك أن بطلر يعتبر عمليات «البحوث النظرية» عبث متحذلقين، ويحبذ رصانة العقل العملى للوصول إلى مدى الشعور والإدراك. وليس فى كتاباته شىء يوضح أو يكشف أنه يظن أن الرجل قد يكون أسعد حالا من غير العقل مطلقاً، وأن قمع البحوث العملية قد يؤخر معراج التطور..

ولكن برنارد شو من الناحية الثانية يقول بأن البحوث العقلية هي أهداف التطور . ويتفق الاثنان على أن القوة التي تنشط الكون مفردة موحدة . أو في حالة برنارد شو هي حاجة ملحة تكافح الإدراك . .

ويمجد برنارد شو الحياة ويقول « إذا كان لنا أن نعيش بلباقة ، فيجب أن نعيش طويلا » وهو يريدنا أن نعيش طويلا لنعرف ونفكر كثيراً . . وبهذا فإن القدماء العارفين في روايته « الرجوع إلى متوشالح » يوظفون حريتهم في تفسير ماهية العقل !

ما الذي يفعله العقل ؟

إنه يفكر ويتأمل ويتبصر في الأشياء !!

التفكير والتأمل والتبصر في ألغاز الحياة وأسرارها خلال العصور المتعاقبة ، الذي يعبر عنه شو بأنه « موضوع التطور » ، ولأجل هذا فإن تجربة الحياة كلها وجدت سبيلها وطريقها . .

أما بطلر فقد رسم الطريق لهذا الرأي ، ولكنه لم يشترك فيه برأي صريح . وكل ما فعله أنه قسم المعنى ، ووصف نظام التطور ، ولكنه لم يعط ملاحظة تذكر عن غرض الحياة أو سببها الرئيسي المباشر !!

والنظام الذي يحدثنا عنه شو في روايته « الرجوع إلى متو شالح » هو في الواقع نظام تقدمي ظاهر يسير على هدى آراء صمويل بطلر نفسه !

أو هو بمعنى آخر تتمة بحث بدأه بطلر وتقدم به برنارد شو تقدما ملموساً ، وصل به إلى نتائج معينة . .

وبهذا يمكننا أن نقول :

إن بطلر كان الجسر الذي عبر عليه شو ليضع نظريته المشهورة « قوة الحياة »

أي أن بطلر كان لبرنارد شو بمثابة سقراط لأفلاطون !!

وبهذا يستقيم البحث ، ويكون كل منهما متمماً للآخر ، رغم الاختلاف الذي وقفنا عليه في تفسير وجهة نظر الاثنين . .

وهذا معناه أن أحدهما يكره البحث النظري ، بينما الآخر يميل إلى البحث العقلي البحت . . .

تصديق فلسفة برنارد شو

من الخطل الحكم بأن فلسفة برنارد شو وجدت حقلا واسعاً من الذيوع والانتشار والقبول ... وذلك لأن تقدمه فى بعض الحقول الأخرى يبعد عنه حكم الناس واستمالتهم لنظرية فلسفية جديدة يطلع بها عليهم . . فالانجليز مثلا - أى الذوق الإنجليزى - يجدون صعوبة كبيرة فى أن ينفروا رجلا ذاع صيته وكسب أكثر من شهرة واحدة فى ميادين الأدب والعلوم ..

وبرناردشو فى هذه الحالة حصل على أكثر من شهرة واحدة قد تصل إلى نصف دسته !! ومن السهل أن نتجاهل كونه فيلسوفا ، إذا تمشينا مع عقلية السواد الأعظم من الناس ، لأن الكاتب الفائز ، ومؤلف المسرحيات الناجح ، والخطيب المصقع ، والفكاهى المحبوب ، والسياسى الداهية ، ومعبود الشعب . كل واحد من هولاء لا يمكن أن يوصف بالفيلسوف ، لأنه بعيد كل البعد عن الطاقة والجهد والدراية الواسعة بأساليب العلوم التى يتطلبها عقل الفيلسوف . .

وبرنارد شو يضرب بسهم وافر فى كل حقل من هذه الحقول ، ولكن نظريته فى التطور الخالق ، يكفى أن يقال فيها إن عقل فيلسوف هو الذى يفكر فى تحليلها ووصفها أحسن تحليل ووصف ، ولا شك أن هذا العقل هو عقل برنارد شو الفيلسوف !!

وهناك مصداق لفلسفة برنارد شو هو رأى برجسون فى التطور الخالق ، ورأى س . الكسندر فى المكان والزمان والألوهية ، وكل هذه الآراء تشبه آراء برناردشو فى الجوهر وإن اختلفت عنها فى المظهر والتعبير ...

صعوبة الهدف أو الغاية

يرينا برنارد شو العالم وقد دبت فيه الحياة . والمادة التى تتجسد الحياة نفسها وتتقدم بموجبها .

ولكن إذا قلنا : هل لهذا التقدم من نهاية ؟

فعسير علينا أن نجيب على هذا السؤال ..

وقد يقول برنارد شو بأن الحياة تتطور فى المادة وخلالها . . ولكنه لا يجيب على السؤال ذاته !

صعوبة العلاقة بين الحيـاة والمادة

ليس هناك تفسير دقيق بين علاقة الحياة بالمـادة . . فالحياة تتدخل فى المادة تدخلا قوياً ، وتستعملها وتصهرها . . ولكن كيف يحدث ذلك ؟ لا يقيم إنسان الدليل على هذا التدخل . . أو حتى يأتى بتفسير مناسب . . والمسألة التقليدية لعلاقة الحياة بالمادة كما أقول لم تحل بعد . . وأحياناً يتحدث برنارد شو عن المادة بأنها تجذب الحياة . . .

يقول بيجماليون فى رواية « الرجوع إلى متوشالح » « خطأ البروتبلازما التركيبية أنها لا تحدد أو تفسر قوة الحياة . أنها أشبه بمغناطيس خشبى أو موصل مصنوع من خيوط حريرية ، لا يسرى فيها تيار كهربائى ! ! .

وكثيراً ما يقال لنا بأن الحياة أو التطور « يجب أن تتعارك مع المادة والزمن بطريق التجربة والخطأ من أجل أن تسمو على المادة والزمن » ومن الطبيعى أن تكون هذه العلاقة عسير وصفها . ولكن يمكن الوقوف عليها فى لغة البيان والبديع . وهذه الحقيقة فى نظر كثيرين ، إذا كانت حقيقة ، تبدو معقدة وأن العلاقة التى تظهرها تبدو غير معقولة . . . وانعكاس العلاقة المستترة بين الحياة والمادة ، هى نفس العلاقة بين الأعضاء الحية وبين العقل والجسم . . .

وكلا الطرفين المتروكين على الغارب : العقل والجسم ، لا يمكن أن يرتبطا معاً برباط وثيق ، ولكنهما قد يتركان متداليين على الدوام . إذن فعلى هذا الضوء ، نرى أن العلاقة بين الحياة والمادة كالعلاقة بين الجسم والعقل ، كل فى واد خاص ، وإن كانا متحدين فى هيكل واحد إلا أن طبيعة عمل الواحد منهما تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة الآخر ، ولكن لا سبيل لانفراد الواحد عن الآخر . واستقلاله بنفسه ، فكلاهما متمم للآخر يعمل معه على تقدم الحياة . .

ومن الصعوبة أيضاً إثبات حرية الفرد .

وهل الفرد مجرد عجلة أو آلة لتطور قوة الحياة ، وبلوغها مراتب الكمال ؛ أو هل يكتسب بعض مقاييس الحرية من تقدم الحياة ذاتها ؟

فى الحالة الأولى ما هو إلا « قلم حبر » تستودع فيه الحياة مجراها ، والفرد هنا غير مسئول عما يفعله تماما ، كما أن القلم غير مسئول عما يكتبه !!

أما عن الحالة الثانية فيقول برنارد شو إن النجاح فى الحياة يحتوى عادة على استخدام أو استعمال المسعى أو الغرض عن طريق القوة التى أوجدتك وتفتح أمامك الآمال فتتبع أغراضك ذاتها وتدأب فى الحصول عليها . .

وهذا هو رأى برنارد شو العام فى تحديد غرض الحياة . . فنحن نشغل أنفسنا بحاجاتنا بدل أن نستعمل أنفسنا فى خدمة الحياة ،

وبرنارد شو يعنى أننا أنانيون ، نعوق تقدم الحياة فى سلمها المنشود . . ورغم أن الحياة تفعل كل ما فى وسعها لترينا عن طريق برنارد شو وأمثاله من أفذاذ الرجال وعباقرتهم ، غرضها الأسمى ، لتعطينا فكرة عن غرضها الرئيسى ، الطريق الذى يجب أن تسير فيه أو تسيرنا هى فيه ، وتشجعنا على المضى فيه بكثرة مغرياتها ، والأهداف التى يسعى اليها كل إنسان من الطموح والكفاح وبوارق المجد إلا أننا كثيراً ما نضل فى وهادها ، وصحاريها التى لا حدود لها . . .

وعلى سبيل الفرض نحن نتمتع بحرية كافية أو أن حرية الإرادة المطلقة مكفولة لكل إنسان ، فلا شك أن صعوبات ثلاث ستقف فى طريقنا على الدوام :

(١) هل حريتنا هذه حرية تذهب فى اتجاه خاطىء ؟ وهل نحن إذا سلكنا الطريق الصحيح نؤدى غرض الحياة على أكمل وجه ؟

(٢) وإذا كنا أحراراً بمعنى الكلمة ، هل نشتق أو نتخذ الطاقة التى تساعدها — الحرية — فى السعي لمنهاج متباعد أو منفرج ، من غرض الحياة الأسمى بالنسبة إلينا ؟

ولنقرب فهم السؤال إلى ذهن القارىء فنقول :

لنفرض أننا آلة الحياة ، أى مطيتها التى تريد أن تعبر عليها بر السلام أو الكمال المطلق المنشود ، فكيف للآلة أن تدور ضد اليد التى دبرتها أو أحسنت استعمالها وخلقها ، فساستها فى الطريق الذى تريده وتراه صالحاً لها وللمجموع ؟

إن برنارد شو نفسه لا يعرف كيف يجيب على هذا السؤال . .

(٣) إن نظرية برنارد شو تمدنا بتعبير قاصر يرثى له . . عن حقائق التجربة المعقولة فى نظرته للحياة ! !

وهنا ينتهى تحليل الفيلسوف جود لفلسفة برنارد شو ذلك التحليل الطويل الذى كان لا بد لنا أن نعرض له ، حتى يلم القارىء تمام الإلمام بنظرية برنارد شو فى الوجود وفى الموجود الأعظم . .

تحليل جود هو لا شك تحليل دقيق ، يدور ويدور ويقيم الأدلة والبراهين على وجاهة النظرية أو تصدعها ، ولكنه لا ينتهى بإقناع حاسم أو رأى سديد . . .